نموذج للــزهـــد من شعر أبي العتـــاهية

د . علي اللافي جولق ـ كلية التربية العجيلات ـ جامعة الزاوية

المقدمة :

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين

أما بعد،،،

يعد الشاعر أبو العتاهية زعيم الزهديات في الأدب العربي قديمه وحديثه فتح لها بابا فنيا واسعاً كره الشهوات الدنيا وملاذها، ودعا إلى محاسنها. فالزهد عنده فن من فنون الشعر، انتشر على ألسنة الحكماء في كثير من الآداب، أراد به وعظ الناس عامة بأسلوب رائع، وألفاظ سهلة ومعان لطيفة قريبة من أفهام الناس فالزهديات في شعره جعلته في مكانة مرموقة بين شعراء عصره.

هذا البحث نموذج لشعر الزهد عند أبي العتاهية، متناولاً فيه قصيدته.

" اليأس من الدنيا" بالشرح والتحليل، ثم الخاتمة التي تحتوي على النتائج التي توصل إليها الباحث، مذيلاً الباحث بالهوامش والمصادر.

بعد ظهور شعراء زهاد في القرن الثاني، نجد تيار الزهد يمتد إلى شعراء آخرين لم يعرفوا بالزهد قط، بل ربما كانوا إلى المجون والزندقة والتهتك والإباحة أقرب والصق، ولكن هذا التيار الزهدي لربما ظهر عندهم في فترات صـ □ كانت تنتابهم، وهذا ما نعتقده وهو يفسر وجود شعر زهدي لشاعر كأبي العتاهية وهو أكبر مجان القرن الثاني الهجري، وقد كانت شكوك الزندقة تحول حوله ، وهذا الشعر لا يخلو من ابتكارات جدية وعواطف دينية، وأفكار زهديه حقيقية. وتأملات في الحياة والموت قد تكون سطـ □ أو عفيفة [1].

وينتقل أبو العتاهية من مرحلة غزله وخمره إلى مرحلة جديدة تعد انقلاباً في حياته، فقد تحول من حياة اللهو والمجون إلى حياة الزهد، وظل نحو ثلاثين عاماً يتغنى بالكـأس الخالدة وشيك الزوال، والكل سيصبح تراباً في تـراب . **ويقول في ذلك :-**

لـــدوا للمـــوت، وابنوا للخـــراب

فكـلكـم يصـــير إلى تبـــاب

لمـــن نبني، ونحـــن إلى تـراب

نصير، كمـا خلـقنا من تراب [2]

ومما ذكر المؤرخون أن زهديات أبي العتاهية هي أجود شعره؛ لأنهُ اختد بها اختصاص بعض الشعراء بأغراض أخرى، وأنه يعتبر زعيم الزهديات في الأدب العربي، قديمه وحديثه؛ لأنهُ صرف جهده إليه، وأكثر فيه الكلام معيداً أو مفصلاً ومناقشاً ومحاولاً الإقناع بالوسائل المختلفة.

وإذا بحثنا في زهديات أبي العتاهية نجده يتطرق في زهده إلى نقطتين بارزتين هما: الترهيب من الدنيا، والترغيب في الآخرة، يدعو الشاعر إلى القناعة؛ لان المال لا يدخل القبور مع أصحابه :

أثروا فلم يدخلوا قبورهم شيئا من الثروة التي جمعوا [3]

ويدعو إلى الترفع عن الشر: وكن عن الشر قصير الخطأ، والى التعلق بما يزين الأخلاق ويجمل الحياة . فيقول الشاعر أبو العتاهية:

ما أك الصـ وما أحسن

صـ ومـا أزينـه بالفتىا

الخرق شؤم ، والتقى جنة

والرفق يمن، والقنوع الغنىا

نافس إذا نافست في حكمة

آخ إذا أخييت أهل التقىا [4]

ويفاضل أبو العتاهية بين الفانية والباقية فيحكم من غير تردد بأن منتهى أمال المرء أن يسمو إلى عالم الخلود حيث الحياة الصحيحة **فيقول:**

سبحان من يعطي بغير حساب

ملكُ الملو وراثُ الأربا

يا نفسُ، لا تتعرضي لعط □

إلا عطية ربك الوها □

يا نفسُ هلا تعلمين فإننا

في دار معتمل لدار ثواب [5].

ويُكثرُ أبو العتاهية من ذكر الموت، والقبرُ خيرُ ما يجسدُ فكرة الموت و □ فيه لعبرة لكل من يعتبر، و □ بعد الحياة أُخرى يحاسب فيها الإنسان على ما جنت يداه.

فيقول:

فما ماتت الأحياء إلا ليبعثوا

وإلا لتجزي كل نفس بما سعت[6].

ويقول عن القبور:

إن المقابر ما علمت لمنظر

يفنى الشجا ويهيج العبرات[7].

ويضيف أبو العتاهية إلى حديثه الطويل عن الموت والقبور حديثاً عن البعث والنشور، ولكنه لا يسترسل في ذكر عذاب الجحيم ونعيم الجنان، بل يلم إلماماً بالبعث والحساب على شاكلة **قوله**:

فلو أنا إذا متنا تركنا

لكان الموت غاية كل د □

ولكنَّا إذا متنا بعثنا

ونسأل بعده عن كل شيء [8]

ويتسع أبو العتاهية أشعاره الزاهدة، ونراه يذيع دعوة واسعة إلى محاسن الأخلاق، ونراه أيضاً يشيع في زهدياته أدعية وابتهالات لربه من مثل قوله:

سبحان من لا شيء يحجب علمه

فالله □ أجمع عند إعلان

سبحان من هو لا يزال مسبحاً

أبداً وليس لغيره السبحان[9]

وقوله:

إلهي لا تعذبني فإني

مُقرٌ بالذي قد كان مني

ومالي حيلة إلا رجائي

لعفوك إن عفوت وحسن ظني [10]

ومما سبق ذكره أن أبا العتاهية في زهدياته أطال الحديث عن الحياة والموت والفناء ومصير الإنسان، ويتحول بجانب ذلك إلى ما يشبه واعظاً، وهو في عظاته[11]

يستمد من القرآن الكريم والحديث النبوي ووعظ الوعاظ ومن أمثالهم ـ الحسن البصري ـ كما يستمد أيضاً من أشعار سابقيه [12].

والواقع أن كثيراً من معاصري أبي العتاهية ومن المتأخرين اتهموه في زهده، فقد صعب على الناس أن يصدقوا توبة امرئ عاش كما عاش الشاعر، وصعب عليهم أن يصدقوها؛ نظراً لما كان من تشبثه بالمال بعد زهده، والزهد والمال ضدان لا يجتمعان [13].

أولاً ـ دوافع الزهد عند أبي العتاهية :

ومن أهم الدوافع التي دفعت أبا العتاهية إلى هذا التحول من حياة اللهو والمجون إلى حياة الزهد والتنسك الأتي:

1 - حالته النفسية واستعداده الفطري لذلك:

وليس لنا من دليل صريح عليه ولكننا نستنتج مما عُرف عن أبي العتاهية من حب المال والحرص على الدنيا، ولم يكن شديدَ الميل إلى الإنفاق في سبيل[23] الشهوات، ولم تكن مشاركته لزملائه في مجونهم أيام شبابه لتقتل ميله إلى الحرص والرزانة ، واندفع

في تيار الحياة ولكنه لم يرخ لنفسه العنان مهيباً بالآخرين أن يسلكوا طريق الرشاد، وأن يعتبروا بظروف الزمان.

2 - فشله في حبه لفتاة من جواري المهدي:

وهذا الدافع الذي حرك في نفسه شهواتها الزهدية وحبب إليه ترك حياته الأولى.

3 - تأثر نفسه بتنسك معاصريه وتماديهم في أسباب الترف: ولا شك أنه كان لعصره تأثير عليه ، وإن ذلك التأثير تحول إلى عاطفة شعرية مغايرة لعواطف زملائه يومئذ، فترك الغزل والمنادمة، واختار لنفسه أسلوباً آخر أحـ □ أن ينفرد فيه.

4 - ميله إلى الطريقة الزهدية في الشعر:

فأبو العتاهية اصطنع الزهد واتخذه طريقةً فنيةً مندفعاً إليه بشوق نفسه إلى هذا النوع من الشعر.

ثانياً- نموذج لشعر الزهد عند أبي العتاهية مع شرح لبعض المعاني :

قال أبو العتاهية يخاطب الدنيا ويكشف عن غرورها في قصيدته المشهورة

(اليأس من الدنيا)

قطعت منك حبائل الآمال

وحططت عن ظهر المطى رحالي

لشيء ويئست أن أبقى لشيء نلت مما

فيك يا دنيا وأن يبقى لي

فوجدتُ برد اليأس بين جوانحي

وأرحتُ من حلي ومن ترحالي

ولئن يئست أن أبقى لرب برقة خلب

برقت لذي طمع، وبر □ □

والآن أبصرت السبيل إلى الهدى[1]

وتفرغت هممي عن الأشغ

ولقد أقام لي الشيب نعاتهُ،

يقضي إليّ بمفر وقذ

ولقد رأيت الموت يبرق سيفه

بيد المنية، حيث كنت، حيالي

ولقد رأيت عُرى الحياة تخرمت

ولقد تصدى الوارثون لمالي

ولقد رأيت على الفن أدلة

فيما تنكر من تصرف حالي

وإذا اعتبرت رأيت خطب حوادث

يجرين بالأرزاق، والآج

وإذا تناسبت الرجالُ، فما أرى

نسباً يقاس بصالح الاعمال

وإذا أتقى امر ، **وأطاعه**

فيداه بين مكـارم ومعـ

وعلى التقي، إذا ترسخ في التقى

تاجان: تاج سكـ ، وجلا

والليل يذهب والنهار، تعاوراً

بالخلق والإدبار، والإقبا

ويحس من تنهى إليه نفسه

منه بأ خلت، ولي

اضرب بطرفك حيث شئت، فأنت في

ع لهن تدارك، وتو

يبكي الجديد وأنت في تجديده

وجميع ما جددت منه، فبـ

مالي أراك لحد وجهك مخلقاً

أخلقت، يادنيا، وجوه رجال

قست السؤال فكان أعظم قيمة

من كل عارفة جرت بسؤال

كن بالسؤال أشد عقد ضنانه

ممن يضن عليك بالأمو

ومن المحامد ما استطعت، فإنها

في الوزن ترجح بذل كل نوال

ولقد عجبت من المثمر ماله

نسى المثمر زينة الإقلا

وإذا ابتليت ببذل وجهك سائلاً،

فابذله للمتكرم، المفضـ

وإذا خشيت تعذراً في بـا

فاشدد يديك بعاجل الترحـ

واصبر على غير الزمان، فإنما

فرج الشدائد مثل حل عة [1]

شـــــرح وتحـليـل

يقول أبو العتاهية :

يا دنيا، قد أعرضت عنك، وقطعت منك الآمال، وأرحت مطيتي من السير فيك، ويئست من بقائي أو بقاء أي شيء لي مما نلته منك، وقد استرحت بهذا،اليأس، وأرحت نفسي من الحل والترحال، وأنت لا تكفين عن التغرير بي وبالناس بالآمال الكاذبة، فبرقك خلب، وماؤك سراب.

الآن عرفتك فاذهبي، يا دار الفرقة والفناء، والآن وجدت طريقي إلى الرشاد، وقطعت نفسي عن الاشتغال بشئونك، واتعظت بنذير الشيب في مفرقي وفي مؤخر رأسي, ورأيت سيف الموت يلمح أمامي، ووجدت أدلة الفناء فيما يمر بي من أحوال، فالأقدار تجري أمامي بالأرزاق والآجال، وقد أصبحت مقتنعا أن الشرف الحقيقي في العمل الصالح، لا في الفخر بالآباء والأجداد، وأن التقي هو الذي فعله كقوله إذا اتقى عبد ربه فقد أصبح متمسكا بمعاني الأمور، وإذا رسخت قدماه في التقوى اطمأن قلبه، وتوج بتاجين : من سكينه ،وجلال . الليل والنهار يتعاقبان على الناس إقبالا وإدبارا، وكل يوم يأخذ جزءا من حياة الشخص ،وينعى إليه نفسه.

فأينما قلبت بصرك تجد عبراً في أثر عبر، وتجد الفناء يلاحق الفناء ويلاحق كل شيء، والبلى يدرك كل جديد.

وعلى الرغم من كل هذه العبر أرى الناس يريقون ماء وجوههم في ذل السؤال، ولو فكروا لعرفوا أن ما يبذلونه أعظم قيمة مما يحصلون عليه، ولضنوا بكرامتهم، كما يضن صاحب المال البخيل بماله، ولأيقنوا أن المحامد ترجع في الوزن ما يبدل من مال ومن عطاء، وأن الإقلال في هذه الحياة أحسن عاقبة وأجمل من تثمير الأموال وتكثيرها، فإن كان لابد لك أيها الإنسان من أن تبدل وجهك فأبدله لمتكرم كثيرالافضال، وإذا ضاقت عليك بلدة فارحل عنها، ففي الأرض متسعً، وإذا أصابتك شدائدُ الزمان فاصبر لها، فإن الفرج قريب.

وهذه القطعة تمثل لوناً من الأدب الجديد على المجتمع الإسلامي، في القرن الثاني الهجري، طابعه الزهد في الدنيا، والكشف عن باطلها وغرورها وتتغير الناس من الاستنامة إليها والإقبال على لذاتها، والحرص على رغائبها من جاه ومال وقد كان أبو

العتاهية زعيم هذا اللون من الشعر، فقد صرف معظم نشاطه الشعري إلى التعبير عن هذه النواحي، واعترف له الفحول من الشعراء المعاصرين بالسبق والتبريز فيها، وكان الخلفاء يرسلون في طلبه ليستمعوا لشعره ويتعظوا بمواعظه.

وإذا بحثنا عن منشأ هذا الزهد وجدنا أن الإسلام نفسه يحض في كثير من نصوصه على الإقبال على الله، وعدم الاهتمام بزخارف الدنيا وأعراضها والتهيؤ للآخرة، ووجدنا كذلك أن المجتمع الإسلامي في القرن الثاني الهجري قد جدت عليه أفانين من اللهو والغناء والغزل والشراب، وكثر الإقبال على اللذات في طبقاته العُليا، فاقتضت سنة الإجماع أن يكون هناك رد فعل لهذه الأحوال، وأن يقوم بجانب أدب اللهو أدب آخر يدعو إلى الجد والنسك ويذكر بالموت والفناء، ويكثر من النصح والحكمة.

ولكن هناك بجانب هذين العاملين عامل آخر، كان له أثره في تطور هذا الفن، وهو ما نقل إلى الفكر الإسلامي من أدب الزهد والنسك والحكمة عند الهنود والفرس واليونان.

ويذهب بعض الباحثين إلى أن المنزع الذي نزع إليه أبو العتاهية في تبشيع الموت، والتخويف منه، وفي الإكثار من وصف البلى والقبور، إنما هو نتيجة تلك التيارات الثقافية والأجنبية التي وفدت على البيئات الإسلامية.

والظاهر أن هذا النوع من الأدب الذي يقصد به وعظ الناس عامة لا يتطلب الجزالة والرصانة، وإنما يتطلب السهولة والوضوح، والقرب من أفهام الناس، وتخير الأوزان الشعرية السهلة الخفيفة الوقع على الأسماع، ولذلك جاء معظم شعر أبي العتاهية من هذا الوادي.

الخـــاتمـــــة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسوله الكريم وعلى آله وأصحابه الذين أمنوا بالله ربا وبمحمد رسولا وبعد:

بعون من الله وتوفيقه وصلت إلى النتائج التالية في هذا البحث:

1 ـ من خصائص أبي العتاهية أنه كان غزير البحر، لطيف المعاني سهل الألفاظ.

2 ـ الزهد فن من فنون الشعر راج على ألسنة الحكماء في كثير من الآداب .

3 ـ شعر الزهد هو الفن الذي يحارب الشهوات والأطماع ويكره الدنيا وملاذها ويدعو إلى محاسنها وأهوائها.

4 ـ يعتبر أبو العتاهية زعيم الزهديات في الأدب العربي قديمه وحديثه لأنه صرف جهده إليه، وكان في زهده ناسكاً عابداً، إسلامياً تماماً.

5 ـ من أهم العوامل التي دفعت أبو العتاهية إلى الزهد تأثر نفسه بتنسك معاصريه وتماديهم في أسباب الترف.

6 ـ هذا النوع من الأدب الذي يقصد به وعظ الناس عامة لا يتطلب الجزالة والرصانة وإنما يتطلب الوضوح والقرب من أفهام الناس وتخير الأوزان الشعرية السهلة الخفيفة الوقع على الأسماع ولذلك جاء معظم شعر أبي العتاهية من هذا الوادي.

الهوامش :

1 – ينظر اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري/ د محمد مصطفى هدارة/ دار العلوم العربية / سنة الطباعة 1988م، ص340.

2 – ديوان أبي العتاهية، دار بيروت للطباعة والنشر،ص23.

3 - ديوان أبي العتاهية، ص268.

4 - ديوان أبي العتاهية، ص25

5 - ديوان أبي العتاهية ص54

6 - ديوان أبي العتاهية ص88.

7 – ديوان أبي العتاهية، ص77.

8 - ديوان أبي العتاهية، ص483.

9 - ديوان أبي العتاهية، ص419.

10 - ديوان أبي العتاهية، ص263.

11 – ينظر تاريخ الأدب العربي/ العصر العباسي الأول/ د شوقي ضيف، ص250.

12 - نفس المرجع، ص250.

13 – ينظر المحيط في الأدب البكالوريا/ جيران مسعود / دار المكشوف/ ط4/ ج2، ص469، 470.

14 - ديوان أبي العتاهية، ص 325، 326، 327.